



أبو القاسم الشابي

العصر التونسي الحديث

بقلم محمد صالح الجابري

وهو تاريخ يحتل في تونس شأنا عظيما .. انعكس على كل ما فسيحيانا اليومي ، وامتد ليسكب في ارواح الشعراء صيوات الجسد وانظر .. فمشوا في مواكب النصر ، بينما كانت ملايين الافواه تملأ عنان السماء ، صخبا ونسوة ، ورحاء ..

انما فسه الشعر في ربوع هذا القطر العربي لم يبدأ في هذا التاريخ العريب جدا ، فمنذ رسخت الحضارة العربية ، لم تسن الاجيال من الشعراء متعاقبة . ما أب جيل الا ترك جذوة الحرف العربي لها معالم ، وأمن على اراث الاجداد والاباء .. ركب يتابعه ركب .. فلم تفت هذه التربة مبدعة خالقة ، معطاء .. كان آخر هؤلاء الافذاذ ابو القاسم الشابي . فالعائمة او بوغلتا قليلا الى وراء سنكون اطول مما يقتضي المقام .

ولاسباب اصبحت واضحة ، عرف المشرق العربي الشابي ، وأعجب به . وظل الشابي الشاعر الوحيد الاكثر شهرة في المشرق من بين شعراء تونس الى زمن بعيد وحتى الان . ولذلك فالفترة المعاصرة هي التي تبرز في حاجة الى تقديم . اذ على الرغم من بوفر وسائط الابلاغ المعاصرة حتى لتكاد حدود هذا العالم نصبح واحدة (ما يقع على طرف منه ينقل في ومضة عين الى حدوده الاخرى) فان أزمة عدم اصغاء او ما يسمى بحوار الصم يسود ادباء العالم العربي ، في وقت ، لو وفقت فيه - وأنا مبالغ في ذلك بلا شك - على شواطئ تونس لتبدي لك لبنان : شواطئ ، وشوارع ، وعمارات ، ولصافحتك واجهات دور نشره التي تأتي الا ان تضرب كشحا عن المساهمة في نشر الادب المغربي وهي في ذلك ملومة معاتبة .

- 1 -

امتد « عصر الشابي » حتى بعد وفاته في سنة ١٩٢٤ . فظلال شاعريته ، وقد استقرزها الكثيرون من معاصريه من بني جلدته ، اخذت في الاستطالة بانفسهم بعد موته ، بعد ان يس اولئك الذين ابوا عليه مكانته عودته من تحت سجع الثرى . وقد لا يمر - حتى الان - موسم من المواسم لا تظهر فيه دراسة من الدراسات الادبية حول الشابي . وشعره ما يزال مثار اهتمام الادباء من كل اقطار البلاد العربية ، وحتى الشباب نجدهم لا ينتكرون للشابي عندما ينظر اليه من اطار الفترة العصيبة الجديدة الي عاشها . ولكن ميزة هذه الدراسات الاخيرة انها تخطت الاندفاعات العاطفية الى اخضاع شعر الشابي الى نظرة تقييمية نقدية وضعت في الموضع اللام من الحركة الشعرية في تونس . فاختفت ظلال الشابي التي هيمنت زمتا على الحركة الشعرية وتسببت في غبن شعراء عديدين حق الظهور لتتاح لبعضهم فرص خلق

يعاني الشعر التونسي حاليا من سبات يرافقه منذ بضع سنوات هي بالتحديد الفتره من سنة ١٩٦٨ وحتى ممتح هذا العام الجديد ١٩٧٢ . وليس بك تلك العصائد القليلة التي تمزق هذا الصمت من آن لآخر دليلا ابينة على التنبية الى مكان الشعراء الذين آبروا الاحلاد الى متاعب الحياة العامة ، ونيار الزحام اليومي .

فالتفسير الممكن لمقاطعة هذا السكون الذي طال امتداده هو ان تلك الاشارات بلوح مندره بعض الاصوات الجديدة التي عششت في ظلال هذا الصمت ، ورفعت عفيرتها بالدعوى الى شعسر « تجريبي » ، واعلنت دونها بهيب او حتمية ، انتهاء جيل من الشعراء الصمت به كل ما يشين ويبيض . واندفعت الى التواجهه بدبلا . ثم اخذت في بيانها الشعرية سرح دعواها وبرر ظهورها .

وانارت المواجهة الباردة التي وفها منهم جيل الشعراء المعروفين في نفوس هذا النفر من الشباب حمية واندفاعا .. فانحرفوا عن دورهم في ان يملكو الفراغ المتاح الى مهامات المداورة والمز والتجريح مما جعل المثقفين والفراء ، على حد سواء ، ينقلبون هذه العصائد الثرية (التجريبية) بتحفظ وسخرية . سيما ان الشعر العربي افترن في النفوس ، منذ الابد ، بظاهرة التقييم التي جافاها هؤلاء لافتقارهم الى القدرة على موسقة فصاندهم ، تلك الموسقة التي هي منه المن على الموهوبين من الشعراء .

من خلال هذه الافاق التي تظهر - لحد الان - عجز هذا الرهط من الداعين الى الفصيحة الثرية من ضوابط الشعر المنقوم (نجد نظائر لهم في شعر آتسي الحاج (لبنان) ومحمد الماغوط (سوريا) وفاضل الزاوي (العراق) ..) .. ونظهر غلوهم في اعتد انفسهم اهمية لا تناسب ما يطرحون من محاولات ، مع بيقنهم من استحالة الاستجابة الجماهيرية لثل هذا اللون من النثر الساعري .

ومن خلال ما يمكن ان نبعث بتراجع وخيبة الجيل الذي ظهر في مدى الستينات ، وصمته الصمت المبكر الذي لا ينيء الا عن ضمور تلك المحاولات التي قدمها في بدء انفتاحه على الفراء ، وانسحابه مدحورا الى الوقفة ، والافلات من حتمية مواجهة الاجيال .

قلت : من خلال ذلك كله حاولت ان ارسم صورة حاضر الشعر التونسي ، وساحاول في خطوط عامة الازدياد الى ماضي الحركة الشعرية في تونس ، طيلة عشرين سنة ، اي منذ منتصف الخمسينيات وحتى اواخر العقد الماضي ، وهي السنوات التي تعرف بسنوات التحرر السياسي ، منذ حصلت تونس على استقلالها في سنة ١٩٥٦ .

اتصال بينهم وبين القراء .

جنت الهالة التي احيط بها شعر الساببي على شعراء ما بلغوا شأوه .. ولكنهم ساهموا بأشعارهم في تطوير حركة الشعر على امتداد سنوات الاربعين فييل الحرب الثانية وبعدها بقليل .. وربما وجدوا أنفسهم في ظرف من الظروف الوجه السببي لحركة الشعر ، حين امتص شعر الساببي كل مظاهر الاحتفاء والاجلال ، ففكس ذلك الامتعاض والمرارة في نفوسهم ، فولى منهم من بولى ، والعليل منهم من تحامل وصابر . يذكر في هذا الصدد : سعيد أبو بكر ، محمود بورقيبة ، عبد الرزاق كركباك ، ثم الطاهر انصار والصادق مازيغ ، فمحمد زيد .

وانسم مصطفى خريف بحاسة المحتكين أن لا اعمل في كتابة شعر كلما فرىء للشاببي فصيد الى جانبه زاد من الصورة المنرفة لتعسر الساببي ، فاستبدل بضاعنه كشاعر وأخذ يكتب من المعاللات الادبية ، وبضع افاصيص . ولم يبرز مصطفى خريف كشاعر الا بعد الحرب الثانية حين كان جل اولئك الشعراء قد اصطفاهم المولى الى جواره . وقد ساعد خريف على مقاومة هذا الاندحار اناجه المنظم في تباعد ، ومعاصرته لاجيال جديده من الشباب استطاع ان يجعل مسن نفسه بينها محور اهتمام لما حف بسيرة حياته من طرافه ، ولتفانفه العربيه الراسخه التي أهله لان يكون مرجعا لكل من يلوذ به . ولقد كان الجيل الذي ظهر ابان فترة التحرر السياسي يرى مصطفى خريف كما هو سيح جاء من التاريخ ليحدثه عن صداقته بالساببي وبمحمود بيزم التونسي (اندي افام بنونس من سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٧) وبعلي الدعايجي ، ومحمد العربي وكركباك ، وجل الابداء الذين اخفوا مبكرا ناركين بصمات ابداعهم تثير الحسرة والشجن والكمد .

ان كل مؤرخ لحركة الشعر التونسي المعاصر يجد مصطفى خريف نقطة بدايته . فهو صلة الرحم بين الجيل الغابر .. والجيل القائم . وهو نمط الشاعر التقليدي المنسب بمعطيات القصيدة العديمة التي وجدت في شعر من بلاه ، من حاول تخليصها بحسبان من فيود الزمت المطلق . ثم وافى بعدهم الجيل الذي حررها ممانسة للسالييسب المسنجة التي ادخلت في بنية القصيدة العربية .. فلا مناص - اذن من ان يكون هذا الشاعر المخضرم فاتحة الشعر التونسي المعاصر . ولطالما ائتت في حياته وفي سيرته انه يعيد لحمه الاجيال الادبية .. وانه شاهد من الماضي يؤمن على مكسباته في الاجيال الحاضرة .

- ٢ -

وبما أننا لا نستطيع في عجاله كهذه افراد كل شاعر بما يستحق - ان له .. وان عليه - فان علينا الفاء ما امكن من الاضواء على اهم البيارات الشعرية ، وعلى اهتمامات الشعراء ، والعضايا النسبي ساهموا في معالجتها ، ومدى توافق ذلك مع مطامح شعبهم ، ووفه وامانيه .

فمما لا سبيل الى نكرانه ان الشعر اوان مرحلة انصراف السياسي بين المستعمر وانباء الوطن افلح في شحذ النفوس بمزيد من الثورة ، والهيب روح الوطنية حماسا فانصا . ولا يمكن ان يكون مثل هذا الشعر الا شعرا جماهيريا تقديريا .. تتوجه كل كلمة فيه الى الاذن والعلب والعمل مجانية كل صنوف الثورية والرمز ، والايماء .

وكل النقاد الذين يحاولون الان تسليط معايير النقد الحديث على آثار تلك الفترة هم مشطون في نظري وهم متعسفون . ولا سكت ان بعض الشعراء الذين عاصروا أحداث تلك الفترة حاولوا ان يكتبوا فصاندهم الوطنية في غير انماط القصيدة العمودية .. شعرا منحرفا ، نسيينا للرأي القائل بان الشعر - مهما اختلفت اشكال كتابته - هو فسادر اخيرا اذا ملك كاتبه ناصية الابداع ان يبلغ رسالته . ووفيا لما ائتت الان من ان الشعر الذي سكب في فوالب تقريرية مباشرة هو شعر لا ينتمي الى هذا العصر شكلا وفحوى .

لقد شهدت الخمسينات نمطين من اشكال بناء القصيدة : النهط

السالف . وكان من أبرز من عرف بالكتابة فيه (محمد زيد ، أحمد الخصار الوزير ، مصطفى خريف ، الصادق مازيغ ، محمد المرزوقي ، منور صمداح ...) . والتمط الجديد الذي كتب فيه (محمد العروسي المطوي ، أحمد اللغماني ، محسن بن حميدة ..) . وقد ناعيس هذان النمطان في تسامح ، وغبرا عن كل الاحداث الهامة التي كانت مدار الاهتمام في تلك الاونة . الا ان أولئك الذين أساعوا الانسكال انجديدة سرعان ما بدأ ينفرط جمعهم ، فارد احمد اللغماني ليكتب في الشعر العمودي ، وقد وجده أكثر رحابة لاستيعاب نثاات وجدانه . ثم اصبح بعد لاي حصما ودودا لانصار الشعر الحر . وذهب محمد العروسي المطوي بعيدا ليشعل بالسياسه خارج وطنه في سفارة ، الا انه ظل على قرابة بالشعراء وبالشعر المحرر .. بالرغم من افلالسه المرط في اناج اشعر والاسماعة عن ذلك بكتابه العصة والافبال على البحوث والدراسات الادبية .

اما محسن بن حميدة فهو بدون جدال شاعر خانب ، اذا فارنا ذلك بامكانياته الكبيرة في ميدان الترجمة .. نخلو اسعاره من الانارة والموهبة ، ويختل فيها الوزن الذي يلزمه من ان لآخر . ولعل خفوت صوته في السنوات الاخيرة من اثر افتناعه بحدود شاعريته .

وان فشل هؤلاء الاخيرين من رواد اول حركة هدفت الى الاطاحة بالقصيدة العمودية ، يقابله بالطبع نجاح اصابنه العصيدة العمودية التي عرفت ان الشعب في فورة نخوبه النوطيه بحاجه الى ازجساء القوافي الصلدة التي لهب أكفه في مناسبات الاجتماع العامة التي كانت القيادة السياسية تكثرتها في بدايه حملات مواجهتها للمواطنين ، فكان مثل هؤلاء الشعراء لا يتخلفون عن الاجتماعات العامة والمواسب الرسمية لينشدوا شعرهم بصوت مجلجل صحاب يجيئ في الصدور .. وأبرز المنشدين البارعين في هذه الحافل : (الساذلي عطاءالله ، الناصر الصدام ، محمد مزهود ، محمد التسعبوني ، وجلال النفاش ..) ومن اليهم . وهم الذين اصبحوا فيما بعد عنوانا على تيار الشعر السياسي الذي تابع تسجيل الاحداث السياسية للدولة العمية .

- ٣ -

- عرفت الخمسينيات اذن بانها سنوات «القصيدة العمودية».. كان هناك نيار متوافق الاصوات ، متعدد التجارب والمواهب .. ومن اهم من مثله ويمثله : مصطفى خريف ، واحمد المختار الوزير ، ومنور صمداح ..

كان مصطفى خريف يمثل في هذا النيار الرجل الذي شهد تحولات البلاد الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وحاذى خطى رجالات القلم والسياسة امدا من الوقت غير قليل . فانتى على بعضهم نناء المحب المشفق ، وبكى من فقد من رفاقه .. وناسى بما نظم في الشسوق والتمخان من زمن راعب ماكر . وديواناه « الشعاع » و « شسوق وذوق » هما كتاب مفتوح لسيرة حياته ، ونبل نعطفه مع الجميع . برفع خريف في شعره عن المهارات الشخصية .. وآمن بوحدة الغرب العربي ، وبوحدة الامة العربية على وجه العموم ، فهو يكتب في عيسد ناسيس الجامعة العربية فانلا :

عيد العروبة عد فدتك دمانسا	واقبل تحييننا ومحض هوانسا
عد بالبتائر حاملا علم المنى	طلعا طروبا ضاحكا جدلانسا
عد في بلاد المشرقين امانيسا	عد في بلاد المغربين امانسا

وفي الذكرى الثانية لعيد العروبة ، كانت نكبة فلسطين فسد حلت سنة ١٩٤٨ ، واقبل العيد مريدا . ووفف الشاعر في الناس يحيي هذا العيد ، وبفايا الحرب لم نزل جراحات وجشت شهسداء ، مخاطبا في وجدانه واحدة من بنات شعبه ، مثلما سلف للشاعر حافظ ابراهيم في قصته مع غادة اليابان .. لقد اخذ الشاعر الاسلوب نفسه:

لا تلمني ان نبتت الادبسا ونقلدت حساما اشطبسا

أنا مالي ولا لحاظ لها
ما الهوى؟ تبا لأصحاب الهوى
أنا مالي والتفان في الغيا
مذهب الحمقى اعتزلت المذهب
واسالي فلبك يصدقك النبا

وتلمس في القصيدة افتراب الشاعر ليهمس اليها بعاره ، يسر
اليها بذات النفس ، ويحاورها بأسلوب الفارس المكابر الذي لا تفل
في عزيمته الهزيمة مهما اشتدت وطأتها ، فهو يعشق اذا كانت هناك
مواسم للشوق ، ولكنه اذا نبت المرار والظلم في الحلق ، وادلهم
الفناء تراه وقد أمسى للدماء والتارات أشد هياما :

حديثي ما الذي يفري الفنى
حل وفد وأغل في حرمسي
ان دعا في قومه : واحربا ؟
ورعى حول الحمى واستلبا

وعند انقطاع حوارهم مع محبوبته ، يهدد الفارس جنات جواده ،
ويقرب في منتهى الطريق مرددا بينه وبين نفسه حنقا مفتابا :

انا لا أجزع من باطلهم
انا لو نازعتي شهب السما
فاستمريا افق نارا ودماسا
انا موتوروهل يفشى الكرى
كيف أغفو وجراحي جمسة
ساد في قومي وحش جانع
ولو الدنيا استعالت نوبا
في بلادي لاحتلت الشهبا
وازدخر موتا وانزل عطبا
رجلا في عزه قد نكبا
ودمي من كبدي قد شخبا
وسطا في أروهي جدي الغربا

شعره القومي يتلظى سعيرا اذا كان للحرب والغداء . واذا كان
للافتخار فهو انشراحه صدر وابتهامة زهو وبطولة . والنكبة
الفلسطينية كانت من بين القضايا العربية الكبرى التي هزت المشرق
والغرب على السواء . فلا عجب ان نجد لها هذه الاستجابة الملحة في
نفس خريف . وهو الذي تزخر قصائده بذكر أمجاد العرب وبحسبها
فخارا له : حضارتهم ، وانتصاراتهم ، ونوابغهم ، وعلمائهم كلهم
نسب وعزرة وعشيرة .

وحفاظا على تراث العرب كان خريف الذي رأى الاستعمار يشن
حملة تزييف ويسعى لاحتلال لغة المستعمر مكان لغة الوطن ينبه في كل
مناسبة ، ويحذر من الاستعمار الثقافي الذي يمكن ان يحل بديلا عن
الاستعمار السياسي فمن طريق الثقافة يربط الاستعمار اولئك الذين
دمغتهم افكاره بمصيره :

عرف المجرسون من اين يؤتى الشعب هاسنبتطوا لذاك ابكارا
بعلمنا استعمروا البلاد جميعا
انشاوا في دماننا استعمارا
رصدوا للاجيال اشياخ سوء
يظهرون التثقيف فيهم شعارا
ياخلون الشباب في ميعة العمر ضمافا لا يفقهون صفارا
يوسعون العقول سخا وتشويها فنساب في الفلال انحدارا

ان الوجدان القومي العميق الذي يلمس كابرز القضايا جليا في
شعر مصطفى خريف لم يات فقط من احساسه ، ونشأته ، وتأسره
بالوسط الذي خالطه ، ولكنه انبثق عن حس استقرائي بالتاريخ
لرجل مثقف .

وكما أسلفت فان مصطفى خريف كتب في معظم الموضوعات التي
تتصل بالحياة : سياسية واجتماعية وذاتية .. ويشق علينا ان نعطي
صورة متكاملة لكل جوانب هذه الموضوعات .

وعلى نقض مصطفى خريف نجد احمد المختار الوزير الشاعر
الترهب الذي بدأ صلته بالصحافة الادبية في سنة ١٩٢٨ في جريدة
« لسان الشعب » .. ولا يزال جنوة من النشاط ، يمزج عن الوسط
الادبي ، في وحدة فرضها على نفسه . ومعظم الشباب الذين عاشوا
مصطفى خريف عن كثب وجالسوه لم يتسن لهم ان يعرفوا المختار

الوزير الا عن طريق مجلة « الفكر » التي كان يؤثرها بقصائده التي
لم تنقطع منذ الخمسينات وحتى الان .. بنفس طابع شاعرها وأسلوبه .
معظم شعر الوزير في الوطنيات و « الوجوديات » . فهو في
الوطنيات يتحسس موضعه في شعبه ، ويعبر عن ايامه وعن
اعياده . ويعف مع الصامدين ووفات البطولة فيؤمل المفاخر ويشيد
بالزعما . ولكنه في تلك القصائد « الوجودية » .. الذاتية فنسان
مبدع وانسان هدفه ان تسود شريعة المحبة بين الجميع :

انما الحب يا اخي ذلك الينبوع
كم حرار من الشفاء سفاها
ورويح مفضوضر حالم الادواح
انا ذاك المحب يسقي بكفيته
كم بصدري من الجراح لرام
في فيضه وفسى اروائه
ورشوان يحنسي من مائه
فساة الجفاة من اعدائه
وبكفسي صباية لارتوائه

فاذا احب الانسان فان سخاء الارض سيزكو ، وستزدهر الطبيعة
وتخضر الادواح في عالم الاحلام . رسالة الشاعر رسالة مترهب كره
البفشاء وآمن بالانسان ، فهو لا يعرف حدودا يمكن ان تقوم في وجه
ابناء هذه الارض فتباعد بين عواطفهم . كل منا يحق له ان يقني في
ارعاء العمورة نشيد اخوه التالي :

لنا الحقول المانجات والجميم الاحصد
لنا على الزبون من اكيله زبرجد
لنا القطيع تاهت السهب به والنجد
لنا على السفوح من ناي الرعاة غرد
لنا الظلال والحياة مشرع ومورد
لنا اذا الليل سجا بكل بيت موقد

ولكن الانسان قد يفضب ، فيبتلي بفضبته .. يدمر وبسفسك
الدماء ، يسلب الارض قدرتها على الانمار ، يميت الرجاء ، يبلغ
درجة الوحشية الملعونة . وفي هذا يقني الفنان - في نظر الشاعر -
عن الانسان العادي . كل الاساءات التي تنبثق عن شرور هذا العالم
تستحيل في صدره الى روائع تفتح كوى من الرجاء . ومع ذلك فالفنان
معرض لحالات الضعف البشري . ومن ثم فان عليه ان يفضب ويساء
ويحزن . وفي هذه الحالة تتناهة نزوة التدمير والشر ليفرج عس
مكونات صدره .
فما الذي عليه ان يعمر !!

مزلت اوتساري وحطمت القيانسرا لا اغنسي
وارفت خمري ما حوت كاسي وما تحويه دنسي
وطويت اضلاعي على شعري واسجاعي وفتسي
ومضيت في صمت اكنم في فيوب النفس لحنسي
واكفك النعم القالب فوق اسفاري وجفتسي
ابكي جراح الحب في اللقب الصفيسر الطمشن
لا .. لا تلمنسي ان بكيت الحب يالي ... لا تلمني

اما نور صمداح الذي بدأ في نشر انتاجه منذ الاربعينات فقد
كان اصغر من هذين الشاعرين ، واصغر من عدده من شعراء هذه
المرحلة . شاعر عصامي موهوب بدون شك : حياته مثل اللزيمسة
والصعود ، على الرغم مما اتنا به من منقصات دفعت به الى حافة
الجنون .. كان نور صمداح مع الثورة منذ بدايتها حتى انه كان يلقب
بفتى الثورة . فاول قافية كتبها كانت تمجيدا للثورة وتبشيرا بيومها
الاي . ولكنه لم يكن ليحسن ترتيب وضعيته كفروي لفظته تخوم
الجنوب الى قلب مدينة لها سننها وتقاليدها ، فاضطرب حين لم
يستطع التالف ، ووجد نفسه اخيرا ملفوظا .

اني سفحت على السفوح الخمرى للشعب نشارك يا دمي المسفوح
ولثمت هاتيك الورود الحمراء في كل جرح من اخ مطروح

وفي آخر هذه المطولة الشعرية التي يشيد فيها بمجد الانسان ،
وعظمة الانسان ، ويوم الانسان الذي سيطل قريبا ، نجد لا يخاطب
بسطاء القوم وحدهم ، أولئك الذين نذر دمه لهم ، وإنما يخاطب
السادة ايضا ، فان اسماعهم المرهفة بمقدورها ان تستوعب نداءه الذي
قد لا يسمعه الفلاح البائس المستلب . ان الشاعر يعتقد ان «السادة»
اكثر اصفاء لكل من يخاطب « عبيدهم » . وهو في ندائه لا يطلب منة
او فضلا ، ولكنه يدعوهم الى تحرير انفسهم من القيد الذي يشدهم :

سجناء خوف ايها الاسبياد تحيون ملء الشكر وهو يقين
من ههنا ان تكرر الاصفساد فيفك سجان بها وسجين

تلك وجوه ثلاثة .. اصوات ثلاثة . غاب من بينها صوت الشيخ
واسطة المقدم مصطفى خريف بينما ما يزال الصوتان الاخران يعدان
بالطريف المستنذب وهما في عنوان الدفق ، احتفظا بالفناء لتقاليد
القصيدة العمودية ، ولم يجريا ايا من الاشكال المستحدثة ، وربما لم
يفكرا في ذلك اذ لم يسمع لهما صوت فيما دار من مجادلات حول شكل
القصيدة .

على ان هؤلاء الثلاثة الذين عدتهم في تيار الخمسينات يقاسمهم
هذه المرحلة بضعة شعراء آخرين لم تبدأ شهرتهم على نطاق واسع بين
القراء الا منذ الستينات .

٤ - وفي هؤلاء يعد : احمد اللفماني ، ونور الدين صمود ، ومصطفى
الحبيب بحري ، وجمال حمدي ، وعلي شلفوح ، وزبيدة بشير ،
وجعفر ماجد ، والشاذلي زوكار ، والهادي نعمان ، وابن الواحة ،
وعبد المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم ، ومحي الدين خريص ،
والميداني بن صالح ، وعلي عارف ، واحمد القديدي .. وهم كل الجيل
الذي يمثل الشعر التونسي الحديث ، من ملتزمين بتقاليد القصيدة
العمودية الى المتحررين ، الى المزاجيين بين الشكليات في آن واحد .
ومن الانصاف ان يحسب في عداد المقلعين عن الكتابة منذ حين :
مصطفى بحري ، والشاذلي زوكار ، علي شلوح ، ابن الواحة ، عبيد
المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم .. فهؤلاء الاخرون نادرا ما
اخذوا ينشرون في السنوات الاخيرة الا اذا كانوا يدخرون ما يكتبون
من قصائد . بينما فترت ايضا همة العدد الباقى من الشعراء فسي
العامين المنصرمين ، اذ قل عدد القصائد التي ينشرونها اذا ما قورن
ذلك بمعدل انتاجهم في السنوات الماضية .

ويعزى هذا الخمول الى فتور حركة النقد عندنا التي يمارسها
غالبها الهواة من الكتاب الذين يستهلون خطواتهم الادبية عن طريق
اسداء الثناء لهذا الشاعر او ذلك . ثم ما ان يشقوا طريقهم حتى
يصبحوا من الشعراء او من القصاصين . اما النقاد الجامعيون فيترفعون
عن تذوق الشعر الحديث لاسباب لها علاقة بتقاليد الجامعيين عموما .
والسبب الثاني مرده تباطؤ حركة النشر اذ ان الشاعر الذي يرى له
ديوانا يطبع في حياته لا يجب ان يفوق من هذا الحلم على طبع مجموعة
اخرى من شعره . ذلك ان الناشرين هنا يتوهمون ان الشعر غير
مقروء في حين ان جل ما طبع من دواوين شعرية في اواخر العقد
المنصرم وبداية السبعينات نفذ معظمه من الاسواق .

والسبب الاخير من اسباب ازورار الشعراء عن نشر شعرهم في
الايام الاخيرة ، يجاهر به الشعراء انفسهم ، فهم يابون ان تقسرا
قصائدهم بجانب ما ينشر من اشعار « نثرية » تسيء في نظرهم الى
حركة الشعر عموما ان لم تكن هدفها هدم الذوق العام الذي ساعدوا
على تميته بين القراء . وهذا او هي الاسباب واقلها وجهة .
تتعدد اهتمامات هؤلاء الشعراء الذين كتبوا خلال هذه المرحلة ،

ان حلما طار من بين كفيه ، هو الذي قاد خطاه الى المهوى الذي
انزاق اليه ، فاضحى ثأثها يسيطر عليه شعور قاهر بان يدا خفيصة
تطاردته وهي على وشك ان تمسك به .. هذا الشاعر المطارد الذي عاش
منذ صباه حياة بائسة فقيرة ، فقد في بدنها السند الذي كان عليه
ان يأخذ بيده ويقوده الى معاهد العلم .. وجد نفسه فجأة وهو فسي
سن مبكرة في معمعان الصراع فركب موجة الثورة ، وحاول ان يحشد
لسيرتها المتدافعة في مطلع الخمسينات « جيش » الجياع المذيعين
الذين ادمى سوط الاستعمار والمستقلين ظهورهم . كانوا اول الصور
التي وقمت عيناه عليها في طريقه الى المدينة .. فرفع صوته ينشدهم
.. ويسمع نداءاتهم لن اصموا الاسماع :

باسم البطون لها نداء حائر ، فقد الجواب وما يزال سؤالا
لا باسم ابناء السعادة والنعيم ، التخمين التائهين دلالات
باسم الجماهير التي في عزمها تدوي الحياة فتخلق الابطالا
وتشبع في الناس العدالة والاخاء ، وتعلم التاريخ والاجيالا
لا باسم افراد يمايز بعضهم ، ففدا يعيش على البلاد وبالا
عجبا يجوع بارضنا خدامها ، كي يطعموا المحتال والمكسالا

وفي فترة وجيزة ، اصبح منور صمداح شاعر العمال والجياع بلا
منازع ، فقد كانت معظم دواوينه الصغيرة التي اصدرها في مطلع
الخمسينات ، وصادرت السلطات الاستعمارية بعضها تلجج بانصاف
المحتاجين ، وبالتحريض على الثورة ، وبالإشادة بجهود أولئك الذين
يدفعون عجلة التاريخ نحو الاستقلال الوطني ، وسرعان ما أخذت
ابعاد القضية التي حملها تنفتح على العالم الاخر ، وتفقد لونها المحلي
لتصبح قضية الانسان الجائع في كل مكان : ذلك الذي يزرع ولا يحصد
في سهول العالم ، يتعب ولا يجني غير المرارة . فيظل ينتظر المسلاله
العائد مع المنتظرين من الصحايا الابرياء الذين يقفون في صف الخلاص
الطويل :

كم على الارض ضحايا ، كم على الارض جناة
ويناة شردوهم يا لتشريد البناة
وسقاة حرموا الشرب فآه للسقاة
وطهاة جوعوا اواه من جوع الطهاة
واكول بطر قد اتخمته الرقبات
ويد تجنسي ولكن منحوها السلطات
هذه الدنيا مجال الشر مهد التزعات
وملاله العدل فيها تائه في الفلوات

ثلاث مراحل تلاحظ في شعر منور صمداح الذي ظل ينتج مدارا
.. ما جف نبع ابداعه .. وما ونى .. او تحاسر . مرحلته الاولى هي
التي كان عرضها لاما لكثرة ما انتج الشاعر خلالها . ومرحلة ثانية
زخرت بما كتبه عن الاحداث الوطنية ، وبما نظمه من شعر الهيام
والنشيب حين انفرجت أزمنته المادية النفسية ، واعتقد انه وضع في
الركاب ساقيه . وما عثم ان عصفت الظروف بالشاعر فاصبح يلفز ،
وكررت الاشارات والدلالات في شعره فكان اقرب ما يكون الى شعر
الواجد ، واقرب من يكون الى المتصوفة . ورويدا رويدا يبدب الصحو
الى نفسه ، والبرء الى جسمه وعقله فيبأرح سجع الوهم ليطل من
جديد على عالم النور ، فيتبصر انه لم يفارق مواطيء قديمه منذ ان بدأ
اول خطواته ، فكتب رانتيه « المناجل » ثم « المطارق » ، ليلتحسم
بصوته القديم الذي كان صوت الجياع والمستقلين من ابناء هذه
الارض :

حتام فيها سادة وبها حشم من سود البيضان في السودان
الناس قد جاءوا لبعضهم خدم فبلا حدود عشت يا انسان

بالنسبة للشاعر نور الدين صمود الذي يدعو في إحدى قصائده محبوبته أن تتركه وحيدا يعيش على التذكر بدلا من أن نعيده السى حبهما الذي انقطع بتصرف خاطيء منها :

أتركيني هنا فلن يخضع الدهر فؤادينا للقرام الكنوب
واذهبي .. اذهبي فاني خلي .. مات في القلب كل حس حبيب
وانفضى الامس حينما كنت طيرا اتملاك وسط روص عشيب
تبعثين الحياة والفرح المعبود والدفء والرضى في القلوب

والمتملي من ديوان صمود «رحلة في العبير» يجب أن يعرف كيف يسد خطاه ، اذا اقدم على هذه الرحلة بين تلك القصائد المضمخة بالطور والارج المفق ، وأكوام الورد ، وأعشاش الحمام ، وأجنحة الفراش الكثيرة الأشتهاء والتلاوين .. وبين جثت ضحايا هسواه والقلوب الكليمة العفراء في حماة غدر عاشق مياطل ، والحبيكات اللاتي ينظرن موعدا مع غروب يوم ربيعي مشمس ، فصمود يبدو في قصائده رساما اكثر منه شاعرا . ولعل لطبيعة البلدة التي ينتمي اليها الحاطة بالخضرة والبحر والسحر من كل طرف أثر على ما يكتب ان لبعضهم الحق كل الحق في أن يصنفوه في عداد الرومنسيين الجدد الذين خلصوا الرومنسية من طابعها النحبي .

وإذا كان صمود يستمد الوان شعره ، وصوره من طبيعة الأرض وفتنتها فان جعفر ماجد يأخذ من عناصر الطبيعة الهاماته الشعرية . فهو على جناح الخيال يرباد الجزر الوهمية ، ويفترش الخيال ، ويعبء جيوبه من النجوم . ويفوص في لجة البحر ليبحت عن صدفين لحبيبه او ليجدف في عينين خضراوين واسعتين . وهو في الظلماء يحلق من غير ريشة ، لتقف به الارياح السى المهمة القفر ، فيرسي كالتسديد الضال عند كل مرفأ مهجور :

أنا في الليل افترش الخيالا
وأملأ من نجوم الافق جيبي
فأفلق مثل ملاح غريب
وأضرب باليدين هنا فتجري
نحيلات كاللا المايبا
تنفسن الغرنفل والخزامى
وافترش الشعور على ضفاف
وأفزل من أشعته ظلالا
وأركب عند مرفئه الهلالا
مدى الايام يحترق الضلالا
جوارى ينحنين لي امثالا
عوارى لسن يحملن النعالا
وفلن الشعر بالطبع ارتجالا
شربن الفل ماء حين سالا

انه خيال شاعر ولا شك .. شاعر ينوهم انه بسط سطوته على الكون ، وانه ملك الخاتم السحري فيسير الملكوت بمشيئته قادر حتى انه كان يخير حبيبته شيئا مما يعجز عن تلبيةه عادة :

قولي : اريد الشمس تعبر راخني
وتحركي هذا الوجود كلعبة
او فاطمي ملك الفضاء وعرشه
تفصم من الفلك الرحيب حباله
وتهن عليك بحاره وخياله
تنفد لحكمك شهيه وهلاله

اما زبيدة بشير فهي المرأة التي ظلت وفيه لذلك الحب المخلد في شعرها .. عبرت في قصائدها عن طابع الانثى ، وجموح عاطفتها ، واخلاصها المطلق ، واذعانها للرجل المؤمل . وكتبت عن غدر الرجال ، وتلونهم ، وصنوف خداعهم . وهي في كل ذلك لا تنقص فقط مشاعر المرأة وحدها .. ولكنها تعيش تجربتها الفريدة ، وحينها النازف من شريان الذكريات التي آبت ان تطرد ذلك الغادر المتصامم . فالقلب في نظرها ، لا يخفق الا مرة واحدة :

حبيبي اذا جادك المفروضون
وقالوا لفيرك فنت

وهي مرحلة الستينيات ضمن تيارين هامين : تيار غنائي ، وتيسار واقعي .. وان نداخل هذان التياران احيانا من شاعر لآخر . فليس هناك شاعر من هؤلاء لم يجرفه تيار الواقع ولم ينكفيء الى اعمال نفسه يناجيها . فعند بعضهم ، كمحي الدين خريف ، جعفر ماجد ، علي عارف ، واحمد اللغماني .. ينحد الموضوعي بالذاتي ، والواقع بالفنائية المفرطة ، فلا يصر لك حدودا بينها .. ولكنها تقسيمات تستند الى خيط واه من الحدس .. فحسبت ان التيار الواقعي الذي دعا الى ثورة اجتماعية وايد الاشتراكية مذهباً ، ولوحظت مظاهر تمجيد الفلاح والعامل في شعره احدً وانصع اشرافا هو الذي يمثله : الميداني بن صالح ، احمد القديدي ، مصطفى بحري ، محي الدين خريف ، علي عارف .. بينما يستمد التيار الثاني معظم موضوعاته من الاحداث الشخصية . وكما قلت ايضا فهو يستمد مرات اخرى من الاحداث الاجتماعية .

ويتنقسم هؤلاء ايضا الى ثلة وجدت في الشعر الحر وفلسفي الموسيقى الجديدة للقصيدة العربية متنفسا لها ، تنفث في منفسحه ما سلف ان ساهمت القصيدة الرتيبة التنازلية المؤطرة ضمن شطرتين متوازيتين في كبته واخماده . بينما يرى انصار القصيدة العمودية ان الكتابة في الشعر الحر اشبه ان يتنفس المرء برئة واحدة .

ولأمر لا اجد له تعليلا ان الذين عاصدوا حركة الشعر المتحرر في مستهلها يقومون الان بحركة انسحاب تدريجي الى صفوف كتساب القصيدة التقليدية كما ظهر ذلك جليا في قصائد جعفر ماجد ، ونور الدين صمود الاخيرة . يمثل التيار الغنائي كما اسلفت خمسة شعراء: احمد اللغماني ، نور الدين صمود ، جمال حمدي ، جعفر ماجد ، زبيدة بشير ، كتب جميعهم شعرا رقيقا في الحب والذكريات والليالي المنصرمة التي تركت في نفوسهم اثرا منها . وتستطيع ان تقرأ في هذه الاشعار قصة كل واحد بل اقصيصه المختلفة منذ عرف الهوى سبيلا الى قلبه حتى اللحظة التي استحال فيها ذلك الهوى الى تهديدات وكوم من الذكريات المبددة .

تلك الايام التي جعلت احمد اللغماني ، عندما لاحت ظلال الاربعين في نفسه ، يكتب مضممار التحسر عن الشباب المضاع قائلا :

ايام كنا والشباب جناحنا
تبعاتنا تلقى على هرج الصبا
نمضي الى آرابنا لا ننتنسي
نسعى الى اللذات وهي متاحة
تلك العهود ؟ فهل لديك حديثها
كالطير بين خمائل ودوابسي
وعلى انتفاضة عمرنا الوثاب
لا شيء يرجعنا على الاعقاب
سعي الفراش لنفحة الاطياب
هل من رجوع للصبا وايساب

وهو في هذا التحسر لا يبكي شيا به برغم شدة حنينه اليه ، ويرغم التذمرات التي يظهرها لانما حسيرا . لقد كان عصي الدمع واثقا من نفسه ، لا يصفر امام هذا القاهر العنيد . احتفظ في كل شعره بطابع الاعتداد ، وبعناد سافر يابى الخضوع لتصاريف الايام :

لست ابن عشرين لكن لم يزل نضرا
سخرت مما بدأ في الفود من وضوح
ما العمر الا الليالي المشرقات فلا
عودي ولم تبد في وجهي التجاعيد
فلم يرعني انذار وتهديد
تعدّ من عمري ايامي السود

واللغماني من بين شعراء العربية المعاصرين القلائل الذين يجيدون كتابة القصيدة العمومية . هو شاعر يملك موهبة البناء واللفسة الشعرية والصورة . نابز بعصامية وجدل كي يصبح الشاعر السذي يستسيخ قراءة شعره حتى اولئك الذين يناوون البناء التقليدي للقصيدة ، وينصون انفسهم خصوما لهذا الشعر .

وحديث الامس ، والذكريات ، والهوى يبدو الموضوع الموحد

وقبلت كانت أحببت
ولا نلق بالآلا ما يدعون
فما كان يمكنني ان احب
وهل في الوجود سواك يحب .

ولكنهم يجب أن يوفوا الشعر حقه ، وأن لا يكون الموضوع ذريعة لأنتهاك
جرمة الشعر .. كما هو الحال في شعر محي الدين خريف الذي يؤاخي
بين الموضوع وبين الفن :

انا انسان جديد
جئت كي أطمع أفواه الجياع
عدت كي أفتح عين الليل عن فجر وليد
أزده الشمس بايام شتائي
أعصر الافراح من قلب الشعاع
وأندك الصخر بالعزم الشديد
وأغني بشموخ وابعاء :
أنا انسان جديد

والمأساة التي عبرت عنها زبيدة بسير لا تبلغ في عمقها عمق
الجرح الذي ظل مغفورا لشاعر عانى المرارة وعاشى الحزن ، وتشرب
الآلام بعنف ، وحيدا مضاعا بين لداته واحبابه ، هو جمال حمدي
الذي تجمعت في شعره نغمته على كل شيء ، خصوصا نغمة مدمرة على
المرأة ، فقد كال لها من اللعنات ما لم يشف غليله بعد . وأنخن فيها
طعنا منذ شرع يكتب الشعر في سنة ١٩٥٢ وحتى اليوم . ومن المؤسف
حقا ان لا يكون لهذا الشاعر ديوان مطبوع بعد .

خيبة اثر خيبة فجر عمري ، وعذاب صباحه ومساؤه
وفراغ ايامه قد تقضت ، وبها ودع الفؤاد رجائه
وانا ها هنا خيال غريب تانه اللحن في وجوم حزين
أتملى الوجود فبرا للاحلامي الحزاني وخافقي المقبون .

هذا الانسان الجديد ، هو العامل .. وهو الفلاح ، وهو رجل
الشارع البسيط الذي رآه ذات يوم علي عارف بجوب طرقات «ليون»
في مقتربه الفاسي ، باحثا عن مرتزق له في بلاد نائية . بساردة
المواطن والمناخ :

لا شك أن في هذه الصورة الميتورة عن تيار المنشدين ، ممن
كتبوا شعرا غنائيا ذاتيا ظلما أكيدا لكل اولئك . ولكنها مجرد خطوط
عامة لتيارهم ، وليست التفاصيل .

نعم اني رأيتك في « ليون » وديعا غير ان الصدر يفلسي
تجيش النفس ليلا حين تاوي وتفتقد الصفار ودفء خسل
عزائك واغترابك ، يا صديقي ، شعور مرهف في خسر قول

اما ابرز شعراء التيار الواقعي فهم : الميداني بن صالح ، محي
الدين خريف ، علي عارف ، احمد القديدي .. تقبل في شعرهم
جميعا احاديث الذكريات والحب والامس ، وقصص الحبيبات ، في
مقابل ما تزخر به قصائدهم من دعوات اجتماعية وشعارات سياسية ،
وتعاطف مع الكثرة الممتحنة التي لا نجد لها مناصرا ، ولسانا يعسر
بخلجات صدرها الذي يضيق ولا متنفس له .

اما الشاعر احمد الفديدي ، فقد حملته الارض كنوزها
وخيراتها ووعدها لذلك الغائب الذي سيأتي ذات يوم يخلص هذه
الارض مما تشكوه من المظالم .. يخلص الفلاح من عوزه .. السجين
من منفاه .. يحرر النفوس الحبيسة والآهة المختزنة في صدر كظيم .

فالميداني بن صالح منذ بدأ يكتب شعار الانتصار للاشتراكية ،
ولم تصده تلك الحملات الادبية التي اتهمت فصائده بافقادها الكلمة
السعرية ، واعتمادها الكلمة النثرية المتبدلة ، والوضوح المطلق بدل
الايحاء الشعري ، ورات ان الموضوعات التي كان يقع عليها متشابهة
في معظمها ، مدارها العامل والمحتاج ووجوب الانتصاف لهما . ولربما
زادت تلك الحملات من اصراره على النهج الذي اخذه ، اذ كان يؤمن
على الدوام ان الشعر يجب ان يكون الخبز اليومي للكثرة من الناس ،
وانه آن الاوان كي يعرض السعراء الفلاف السعري عن قصائدهم
وكلماتهم الايحائية لينظر فيها اولئك الذين لا يقدررون على الفوص ..
اولئك الذين يتجهون الحرف :

الارض .. الارض التي يجبها الشاعر دوما ، ويشار لمن يجد
الاهانة على اديمها بعد ان يكون قد سقاها عرقه ودمه :

حملتني الارض للفائبات حبات عنب
حملتني الزيت والخبز لسه
حملتني بفض حب وغضب
حملتني بسمة الاطفال
اعطتني من الفلاح عزما وتعب
ايها الفائبات في الصمت
كتبنا لك بالرفض الادب

ان النماذج القليلة وهذه الصورة المنسرة عن تاريخ عشرين سنة
من الشعر التونسي الحديث لا تصدق ان تكون علامات .. مجرد
اشارات الى ذلك الطريق المليء بالعثرات والقامرة والبذل ، قطعته
الشعراء وهم يحاولون دون وني اووهن عزيمة ان يوصلوا هذا الحاضر
المؤئل بذلك الماضي الخالد ، وان يداخل الاجيال القادمة الشعور
بان لها تراثها العربي وامجادها وحضارتها ، وان بالامكان الثورة على
هذا التراث والتمرد عليه ومحاولة اعادة صياغته . وان النكر له ضرب
من الانتحار الفاجع .

شعري لهات الكادحين على الدروب .

شعري اهازيج الشعوب ،

من صارعوا الامواج والبحر الفصوب ،

من غالبوا الافدار ، وافتحموا الخطوب ،

من عبتوا الطرق المديدة في الجبال

وفي الصحاري والسهوب

كل ما كتبه لم يكن توهم البعض سدودا وعقبات وضعت في
وجه التجديد . ان هذا التاريخ على مداه كان دعوة للثورة وتمهيدا
لها ، ونبوءة بها . فهل هناك من يتور ؟ .

محمد صالح الجابري